الطالبين وثوراتهم المتتالية، فرأى العباسيون أن يقتصروا بعلي رضي اللّه عنه على الدرجة التي كان عليها من التأخر في الرتبة عن أسلافه من الخلفاء الراشدين رضي اللّه عنهم أجمعين.

ولاية العهد:

قدمنا أن المهدي نزع من ولاية العهد عيسى بن موسى بن علي وجعل محله ابنه موسى الهادي ثم جعل بعده ابنه هارون الرشيد.

وفاة المهدي:

في (سنة ١٦٩) أراد المهدي الخروج إلى جرجان، فلما وصل إلى ماسبذان أدركته هناك منيته ليلة الخميس لثمان بقين من المحرم في قرية يقال لها الروذ وصلّى عليه ابنه هارون، لأنه كان في صحبته.

٤ ـ الهادي

هو موسى الهادي بن محمد المهدي بن جعفر المنصور، وأمه أم ولد اسمها الخيزران كانت ملكاً للمهدي. وفي (سنة ١٥٩) أعتقها وتزوجها أي بعد أن ولدت له الهادي والرشيد. ولد الهادي (سنة ١٤٤) وولاه أبوه العهد وسنّه (١٦ سنة)، وكان يوليه قيادة الجنود في المشرق فقادها في نواحي بجرجان لمحاربة الخارجين والمخالفين. وفي اليوم الذي توفي فيه أبوه كان مقيماً بجرجان وكان مع المهدي ابنه هارون، فأخذ له البيعة على الجند وأرسل إليه بخاتم الخلافة وبالقضيب والبردة والتعزية والتهنئة وكان ذلك في (٢٢ محرم سنة ١٦٩ ـ ٤ أغسطس سنة ٧٨٥)، ولم يزل خليفة حتى توفي في (١٣ ربيع سنة ١٧٠ ـ ١٣ سبتمبر سنة ٨٧٦) فكانت مدته سنة وشهراً و (٢٢ يوماً) وسنّه حين مات (٢٦ سنة).

وكان يعاصره في الممالك الثلاث من كانوا يعاصرون أباه.

الحال في عهده:

كان الهادي على سنن أبيه في كراهة الزنادقة، فالتفت إليهم ونكل بهم تنكيلاً والزندقة على ما يظن كانت عندهم عنواناً على ترك التدين والمجازفة في التعبير عن الدين. روى الطبري أن ممن قتل الهادي يزدان بن باذان الكاتب. ذكر عنه أنه حج فنظر إلى الناس في الطواف يهرولون فقال: ما أشبههم إلا ببقرة تدوس في البيدر وله يقول العلاء بن الحداد الأعمى:

أيـا أميـن اللّـه فـي خلقـه ... ووارث الكعبـة والمنبـر

مـاذا تـرى فـي رجـل كـافـر ... يشبّـه الكعبـة بـالبيـدر

ويجعل الناس إذا ما سعوا حمرًا تدوس البر والدوسر

وروى الطبري بسنده أن المهدي قال يوماً لموسى وقد قدم إليه زنديق فاستتابه فأبى أن يتوب فضرب عنقه وأمر بصلبه: يا بني إن صار لك هذا الأمر فتجود لهذه العصابة (يعني أصحاب ماني) فإنها تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للآخرة ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجاً وتحوباً ثم تخرجها من هذه عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق تنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور فارفع فيها الخشب وجرد فيها السيف وتقرب بأمرها إلى الله لا شريك له فإني رأيت جدك العباس في المنام قلدني بسيفين وأمرني بقتل أصحاب الاثنين.

ومن غريب ما يروى أنه أتي للمهدي برجلين من بني هاشم، أحدهما ابن لداوود بن علي والثاني يعقوب بن الفضل بن عبد الرحمٰن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وقد اتهما بالزندقة وأقرا عنده بالزندقة، فأما يعقوب بن الفضل فقال له: أقر بها بيني وبينك، فأما أن أظهر ذلك عند الناس فلا أفعل ولو قرضتني بالمقاريض فقال له: ويلك لو كشف لك السماوات وكان الأمر كما تقول كنت حقيقاً أن تعصب لمحمد، ولولا محمد ﷺ من كنت هل كنت إلا إنساناً من الناس.

أما والله لولا أني كنت جعلت لله علي عهداً إذا ولاني هذا الأمر ألا أقتل هاشمياً لما ناظرتك ولقتلتك ثم التفت إلى موسى الهادي فقال: يا موسى أقسمت عليك بحقي إن وليت هذا الأمر بعدي ألا تناظرهما ساعة واحدة، فمات ابن داوود بن علي في الحبس قبل وفاة المهدي، وأما يعقوب فبقي حتى مات المهدي وقدم موسى من جرجان فساعة دخل ذكر وصية المهدي فأرسل إلى يعقوب من ألقى عليه فراشاً وأقعدت عليه الرجال حتى مات.

ثورة الحسين بن علي:

وفي عهد الهادي خرج بالمدينة الحسين بن علي بن الحسن المثلث (سنة ١٦٩)، وكان والي المدينة لوقته عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب وسبب خروجه أن عمر بن عبد العزيز أخذ الحسن بن محمد النفس الزكية وجماعة كانوا على شراب لهم فأمر بهم فضربوا جميعاً ثم أمر بهم فجعل في أعناقهم حبال وطيف بهم في المدينة، فصار إليه الحسين بن علي فكلمه فيهم وقال له: ليس هذا عليهم وقد ضربتهم ولم يكن لك أن تضربهم لأن أهل العراق لا يرون به بأساً فلم تطوف بهم فبعث إليهم وقد بلغوا البلاط فردهم وأمر بهم إلى الحبس فحبسوا يوماً وليلة ثم كلم فيهم فأطلقهم جميعاً وكانوا يعرضون كما قدمنا «يراقبون» ففقد الحسن بن

محمد وكان الحسين بن علي ويحيى بن عبد الله بن الحسن كفلاه، لأن العمري كان كفل بعضهم من بعض فغاب عن العرض ثلاثة أيام فأخذ الكفيلين وسألهما عنه، فحلفا أنهما لا يدريان موضعه فكلمهما بكلام أغلظ لهما فيه، فحلف يحيى بن عبد الله ألا ينام حتى يأتيه به أو يضرب عليه باب داره حتى يعلم أنه قد جاءه، فلما خرجا قال الحسين: سبحان الله ما دعاك إلى هذا وأين تجد حسناً حلفت له بشيء لا تقدر عليه. قال: والله لا نمت حتى أضرب عليه باب داره بالسيف، فقال حسين: تكسر بهذا ما كان بيننا وبين أصحابنا من الصلة. قال: قد كان الذي كان فلا بد منه، وكانوا قد تواعدوا على أن يخرجوا بمنى أو بمكة أيام الموسم، وكان بالمدينة جماعة من أهل الكوفة من شيعتهم وممن كان بايع الحسين بن علي، ففي آخر الليل خرجوا وجاء يحيى بن عبد الله حتى ضرب باب دار مروان علي العمري، فلم يجده فيها وتوارى منهم فجاؤوا حتى اقتحموا المسجد. ولما أذن الصبح جلس الحسين على المنبر وعليه عمامة بيضاء وجعل الناس يأتون المسجد فإذا رأوهم رجعوا ولا يصلون، فلما صلّى الغداة جعل الناس يأتونه ويبايعونه على كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ للمرتضى من آل محمد وقاومهم جماعة من نصراء الدولة فلم يفلحوا ولما تم للحسين بن علي ما أراد انتهبت جماعته ما في بيت المال.

أقام الحسين بالمدينة بعد إعلان الخروج أحد عشر يوماً، ثم فارقها لست بقين من ذي القعدة قاصداً مكة.

انتهى خبر الحسين إلى الهادي، وقد كان حج في تلك السنة رجال من أهل بيته منهم محمد بن سليمان بن علي والعباس بن محمد وموسى بن عيسى سوى من حج من الأحداث، وكان على الموسم سليمان بن أبي جعفر المنصور، فأمر الهادي بالكتاب بتولية محمد بن سليمان على الحرب، فلقيهم الكتاب وقد انصرفوا عن الحج. وكان محمد بن سليمان قد خرج في عدة من السلاح فشمر للحرب وسار نحو الحسين بن علي فلقيه بفخ وكانت عاقبة الوقعة أن قتل الحسين بن علي الثائر وجماعة ممن معه وأفلت من الموقعة رجلان لهما تاريخ جليل وهما إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي أخو محمد النفس الزكية وهو مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى والثاني أخوه يحيى بن عبد الله الذي ذهب إلى بلاد الديلم وسيأتي خبرهما في دولة الرشيد.

ومما يحسن ذكره ما رواه الطبري قال: دخل عيسى بن داب على موسى بن عيسى عند منصرفه من فخ فوجده خائفاً يلتمس عذراً من قتل فقال: أصلح الله الأمير أنشدك شعراً كتب به يزيد بن معاوية إلى أهل المدينة يعتذر فيه من قتل الحسين بن علي رضي الله عنه قال: أنشدني فأنشده:

يـا أيهـا الـراكـب الغـادي لطيتـه ... علـى عـذافـرة فـي سيـرهـا قحـم
أبلـغ قـريشـاً علـى شحـط المـزار بهـا ... بينـي وبيـن حميـن اللّـه والـرحـم
ومـوقـف بفنـاء البيـت أنشـده ... عهـد الإلـه ومـا تـرعـى بـه الـذمـم
عتقتـم قـومكـم فخـراً بـأمكـم ... أم حصـان لعمـري بـرة كـرم
هـي التـي لا يـدانـي فضلهـا أحـد ... بنـت النبـي وخيـر النـاس قـد علمـوا
وفضلهـا لكـم فضـل وغيـركـم ... مـن قـومكـم لهـم مـن فضلهـا قسـم
إنـي لأعلـم أو ظنـاً كعـالمـه ... والظـن يصـدق أحيـانـاً فينتظـم
أن سـوف يتـرككـم مـا تطلبـون بهـا ... قتلـى تهـاداكـم العقبـان والـرخـم
يـا قـومنـا لا تشبـوا الحـرب إذ خمـدت ... وأمسكـوا بحبـال السلـم واعتصمـوا
لا تـركبـوا البغـي إن البغـي مصـرعـة ... وإن شـارب كـأس البغـي يتخـم
قـد جـرب الحـرب مـن قـد كـان قبلكـم ... مـن القـرون وقـد بـادت بهـا الأمـم
فـأنصفـوا قـومكـم لا تهلكـوا بـذخـاً ... فـرب ذي بـذخ زلـت بـه القـدم

قال: فسري عن موسى بن عيسى بعض ما كان فيه.

صفات الهادي:

كان الهادي شديد الغيرة على حرمه ويشبه في ذلك سليمان بن عبد الملك في بني أمية، وقد نهى أمه الخيزران أن يدخل عليها أحد من القواد أو رؤساء حكومته بعد أن كان لها من نفوذ الأمر في عهد المهدي ما لم يكن لامرأة غيرها (قالوا) كانت الخيزران في أول خلافة موسى الهادي تفتات عليه في أموره وتسلك به مسلك أبيه من قبله في الاستبداد بالأمر والنهي، فأرسل إليها ألا تخرجي من خفر الكفاية إلى بذاءة التبذل فإنه ليس من قدر النساء الاعتراض في أمر الملك وعليك بصلاتك وتسبيحك وتبتلك وكانت الخيزران في خلافة موسى كثيراً ما تكلمه في الحوائج فكان يجيبها إلى كل ما تسأله حتى مضى لذلك أربعة أشهر من خلافته وانثال الناس عليها وطمعوا فيها فكانت المواكب تغدو إلى بابها فكلمته يوماً في أمر لم يجد إلى إجابتها إليه سبيلاً فاعتل بعلة فقالت: لا بد من إجابتي. قال: لا أفعل. قالت: فإني قد تضمنت هذه الحاجة لعبد اللّه بن مالك فغضب موسى وقال: ويلي على ابن الفاعلة قد علمت أنه صاحبها واللّه لا قضيتها لك. قالت: إذاً واللّه لا أسألك حاجة أبداً. قال: إذاً واللّه لا أبالي وحمى غضبه فقامت مغضبة فقال: مكانك تستوعبي كلامي واللّه وإلا فأنفى من قرابتي من رسول اللّه ﷺ لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي أو أحد من خاصتي أو خدمي لأضربن عنقه ولأقبضن ماله فمن شاء فليلزم ذلك ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك في كل يوم أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت

بصوتك إياك ثم إياك فتحك بابك على مسلم أو ذمي، فانصرفت ما تعقل ما تطأ فلم تنطق عنده بحلوة ولا مرة بعدها.

وكان شجاعاً قوياً روي عنه أنه كان يثب على الدابة وعليه درعان.

وكان يرى الناس لا يصلحون إذا حجب خليفتهم عنهم حتى أنه قال للفضل بن الربيع الذي أقامه في حجابته بعد أبيه: لا تحجب عني الناس فإن ذلك يزيل عني البركة ولا تلق إلي أمراً إذا كشفته أصبته باطلاً، فإن ذلك يوقع الملك ويضر بالرعية، وقال مرة لعلي بن صالح: ائذن للناس علي بالجفلى لا النقرى ففتحت الأبواب فدخل الناس على بكرة أبيهم فلم يزل ينظر في المظالم إلى الليل.

وكان الهادي يشرب النبيذ ويسمع الغناء وهو أول من فعل ذلك من خلفاء بني العباس وأهل العراق يتوسعون في أمر النبيذ فيجيزون منه ما لا يسكر.

وكان كريماً يشبه أباه في أعطياته. ولم تطل مدته في الخلافة حتى يكون له في أحوال الأمة أثر ظاهر.

ولاية العهد:

كان الرشيد ولي العهد بمقتضى عهد المهدي فخطر للهادي أن يخلعه ويعهد إلى ابنه جعفر وتابعه على ذلك القواد ودسوا إلى الشيعة فتكلموا في أمر الرشيد وتنقصوه في مسجد الجماعة وقالوا: لا نرضى به. وأمر الهادي ألا يسار بحربة أمام الرشيد ومر يوماً هو وجعفر بن الهادي راكبين فبلغا قنطرة من قناطر عيساباذ فالتفت أبو عصمة الشرطي إلى هارون فقال له: مكانك حتى يجوز ولي العهد فقال هارون: السمع والطاعة للأمير فوقف حتى جاز جعفر. دعا ذلك إلى اجتناب الرشيد فلم يكن أحد يجترىء أن يسلّم عليه ولا يقرّبه، وكان يحيى بن خالد يقوم بإنزال الرشيد ولا يفارقه فسعى إلى الهادي أن الذي يفسد عليك هارون هو يحيى وكان هارون قد طاب نفساً بالخلع فقال له يحيى: لا تفعل فدعا الهادي بيحيى وكلمه في ذلك فقال: يا أمير المؤمنين إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم وإن تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعته فقال له الهادي: صدقت ونصحت ولي في هذا تدبير. ومع ظهور اقتناع الهادي بصحة رأي يحيى لم يتركه مشيروه بل ما زالوا يحرضونه على الرشيد حتى جد فيه واشتد غضبه منه وضيق عليه فأشار يحيى على الرشيد أن يستأذنه في الخروج إلى الصيد فأذن له الهادي. فلما غاب أكثر مما استأذن جعل يكتب إليه ويصرفه فتعلل الرشيد حتى تفاقم الأمر وأظهر الهادي شتمه وبسط مواليه وقواده ألسنتهم فيه.

قطع ذلك النزاع كله مرض الهادي الذي لم يمهله إلا ثلاثة أيام. وقد اتهم الناس أمه الخيزران بسمه لما كان منه من غل يدها عن المداخلة في أمر الملك ونهى القواد والرؤساء عن الدخول إليها وانضم إلى ذلك ما أولع به الهادي من الإساءة إلى الرشيد وإرادة عزله أو قتله وكان الرشيد براً بها وقد يؤكد ذلك أنها أرسلت إلى يحيى والهادي مريض تعلمه أن الرجل لمآبه وتأمره باستعداد لما ينبغي فاستعد يحيى للأمر أكمل استعداد وهيأ الكتب للعمال من الرشيد بوفاة الهادي وأنه قد ولاهم الرشيد ما كانوا يولون. فلما مات الهادي نفذت الكتب على البرد وكانت وفاته بعيساباذ.

٥ ـ الرشيد

هو هارون الرشيد بن محمد المهدي وأمه أم الهادي ولد بالري (سنة ١٤٥)، ولما شب كان أبوه يرشحه للخلافة فولاه مهام الأمور. جعله أمير الصائفة (سنة ١٦٣) و (سنة ١٦٥) وفي (سنة ١٦٤) ولاه المغرب كله من الأنبار إلى أطراف إفريقية فكانت الولاة ترسل من قبله وفي (سنة ١٦٦) جعله أبوه ولي عهد بعد الهادي وفي (سنة ١٦٩) وهي السنة التي توفي فيها المهدي أراد أن يقدمه على الهادي لما ظهر من شجاعته وعلو شأنه فحالت منية المهدي دون ذلك.

بويع الرشيد بالخلافة يوم أن مات أخوه الهادي في (١٤ ربيع الأول سنة ١٧٠ ـ ١٤ سبتمبر سنة ٧٨٦) وسنه (٢٥ سنة) ولم يزل خليفة إلى أن توفي في ثالث جمادى الآخرة (سنة ١٩٤ ـ ٢٤ مارس سنة ٨٠٨)، فكانت مدته (٢٣ سنة) وشهرين و (١٨ يوماً) وكان سنه إذ توفي (٤٨ سنة).

وكان يعاصره في الأندلس الأمير عبد الرحمٰن الداخل (١٣٨ ـ ١٧٢) ثم هشام بن عبد الرحمٰن (١٧٢ ـ ١٨٠) ثم الحكم بن هشام (١٨٠ ـ ٢٠٦).

وفي المغرب الأقصى إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (١٧٢ ـ ١٧٧) وهو أول المتغلبين من البيت الإدريسي ثم ابنه إدريس (١٧٧ ـ ٢١٣).

ويعاصره في فرنسا شارل الكبير المعروف بشارلمان (٧٦٧ ـ ٨١٤).

ويعاصره في مملكة الروم بالقسطنطينية قسطنطين السادس، وكانت تدبره لصغره أمه أريني (٧٨٠ ـ ٧٩٧) ثم استبدت بالملك من (سنة ٧٩٧) إلى (سنة ٨٠٢) ثم خلعت وخلعها نقفور (٨٠٢ ـ ٨١١).

الحال لعهده:

كان عهد الرشيد واسطة عقد المدة العباسية وصلت فيه الخلافة إلى أفخم درجاتها صولة